مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: التاريخ بالتصوير عند ابن فضل الله العمري
اسم الكاتب: أ.د. محمود سالم محمد، وطفه قطيمان
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2968
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 06:50 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

التّأريخ بالتصوير الأدبيّ عند ابن فضل الله العمريّ

محمود سالم محمد ** **وطفه قطيمان ***

الملخص

يتناولُ البحثُ ابنَ فضلِ اللهِ العمريِّ مؤرخاً بالتصوير الأدبي، ويصف لنا كيف استطاع هذا العالم الأديب أن يؤرخ حادثة عظيمة كحادثة طوفان الجامع الأموي بلغة أدبية عالية، وبأسلوب سلسٍ قلما اعتاده المؤرخون، وذلك برسالة حب ومودة بعث بها إلى صاحبه وأديب العصر صلاح الدين الصفدي[3]، فصوَّر له هذه الحادثة بلغة تليق بمن أرسلت إليه، مستعرضاً ملكاته الأدبية التصويرية، وخيالاته المبتكرة، فاستطاع أن ينقل مشاهد طوفان دمشق إلى صاحبه في مصر بدقة فائقة، وأمانة فنية.

يرتكزُ البحثُ على التَّقديمِ له بالتَّعريفِ بابن فضل الله العمري، وتوضيح معنى التصويرِ الأدبي لغةً واصطلاحاً، ثم الحديث عن أدوات العمري التي استعملها في التصوير، وذكرِ الأساليب البلاغية والبديعية التي اتكأ عليها لبث الروح في أوصال نصه، وليُحَمِّل رسالته الدافئة بمشاهد الشتاء القارس، وليُمتِّع خيالَ صاحبِه باستحضار هذه المشاهد بأعلى العبارات وأفصحها.

اعتمدت هذه الدراسة في خُطَّتها على المنهج الوصفي التحليلي لعرض فنون البلاغة والبديع التي رسم بها العمري الحوادث رسماً توثيقياً، وكشف ما جاء فيها من إشارات حفَّزت خيال المتلقي ونقلته إلى داخل الحدث. وانتهت الدراسة إلى بَعضِ نتائجَ مبنيَّةٍ على ما جاءَ فيها.

الكلمات المفتاحية: التأريخ، التصوير، ابن فضل الله العمري، العصر المملوكي، الصورة الفنية.

* –طالبة دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

**–أستاذ دكتور في جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، الاختصاص: أدب مملوكي.

[3] – هو خليل بن أيبك بن عبد الله، الأديب صَلاح الدّين الصَّفَدِي، أَبُو الصفاء، أديب مؤرخ مصنف، نظم ونثر، وأخذ عنه أعلام الأدب والتاريخ، عمل كاتباً في الدولة، وخلف كتباً كثيرةً في الأدب والتاريخ والتراجم، توفي سنة 764هـ. انظر: **الدرر الكامنة**، ابن حجر العسقلاني 87/2 (1654).

Writing History through Imagery in Ibn Fadlallah al-Umari's Work

Watfa Kutaiman ** **Mahmoud Mohammad***

Abstract

This research investigates how Ibn Fadlallah al-Umari wrote about historic events through imagery. It describes the way this author documented significant events, such as the flood of the Umayyad Mosque, using elevated language and beautiful style that was unusual among historians. Ibn Fadlallah managed to do so in a letter of love and friendship, sent to his companion and well-known writer Salah al-Dīn al-Ṣafadī.

This study paves the way for the subject by introducing the writer and explaining literary imagery, and then examines the literary devices used in the letter. It mentions the rhetorical devices and figurative language Ibn Fadlallah used to convert his text into theatrical scenes that pictured extreme winter; methods Ibn Fadlallah used to feed the imagination of his friend utilizing the best eloquent phrases he could come up with.

Keywords: dating, imagery, Ibn Fadlallah al-Umari, the Mamluk period, artistic imagery.

*Prof. Damascus University, College of Arts and Humanities

**PhD student, Damascus University, College of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

المقدمة:

لا شكَّ في أنَّ المؤرخين قد اتخذوا الطرق التقليدية للتأريخ، عبر ربط الحوادث بأزمنة حدوثها بلغة بسيطة واضحة بعيدة عن الخيال والصنعة، وقد سار العمري على نهج المؤرخين المعتاد– أمثال شيخه الذهبي[1] وغيره– فبنى التأليف التاريخي في مسالك الأبصار[2] عبر الأسفار الأربعة الأخيرة بلغة بسيطة واضحة، بيد أنه لم يكتفِ بهذا النوع من التأريخ بل برع في نوعٍ آخر منه، وثَّق به الحوادث الجليلة من خلال رسم صورها ومشاهدها، مستعيناً بذخيرته اللغوية الغزيرة، وبراعته التصويرية، وخياله الخصب، فاستطاع بناء صور فنية حفظت لنا الحوادث بطريقة فريدة.

ولأنَّ الأدب هو نتاج الأديب فلابد بداية من التعريف بهذا الأديب الموسوعيّ، والإلمام بالظروف التي نشأ فيها كي نفهمَ أدبَه، وندركَ المؤثراتِ المحيطةَ بالعمليةِ الإبداعيةِ عنده.

ابنُ فضلِ اللهِ العمريّ

اسمه ولقبه وكنيته: هو أحمدُ بن يحيى بن فَضلِ اللهِ العمري، يعود نسبه إلى عمرَ بن الخطَّابِ، كنيتُه: أبو العَبَّاسِ، لقبُه: شِهَابُ الدِّينِ[3].

مولده: ولد في الثالث من شهر شوال، عام700هـ، ونشأ في بيتٍ من بيوتاتِ العربِ المُعْرِقَةِ في الأدبِ، إذ عملَ عددٌ كبيرٌ من ذويهِ في ديوانِ الإنشاءِ وكتابةِ السرِّ في أزهى أيامِ الدولةِ المَمْلُوكِيَّةِ لأكثر من قرن من الزمنِ، وخاصةً أيامَ سلطنةِ آل قلاوون[4].

---

[1] – هو شمسُ الدينِ الذهبيّ، محمدُ بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت: 748هـ): المؤرخُ الدمشقيّ، التركمانيّ الأصل، ولد سنة 673هـ بدمشقَ، وولي الخطابةَ بكفر بطنا، كان عالماً واسعَ المعرفةِ، كتبَ الكثيرَ من المصنفاتِ الجليلةِ ولا سيما في التاريخ. انظر: **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ**، صلاح الدين الصفدي 114/2–118 (525).

[2] – **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: هي موسوعة من تأليف ابن فضل الله العمري (ت: 749هـ)، تتكون من 27 سفراً، تحدث فيها عن الجغرافيا والتاريخ والأدب والديانات والعلوم الطبيعية.

3 – انظر: **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ** 163/8 (1348)، **فَوَاتُ الوَفَيَات**، ابن شاكر الكتبي 157/1(60)، **ألحان السواجع**، صلاح الدين الصفدي 149/1، **المُقَفَّى الكَبير**، تقي الدين المقريزي 732/1 (677)، **النُّجُوم الزَّاهِرَة في مُلُوكِ مصرَ والقَاهِرَة**، ابن تغري بردي 185/10، **المَنْهَل الصَّافِي والمُسْتَوفِي بعدَ الوافِي**، ابن تغري بردي 262/2 (338)، **الدُّرَر الكَامِنَة** 331/1(828)، **شَذَرَات الذَّهَبِ في أخبارِ مَنْ ذَهَبَ**، ابن العماد الحنبلي 273/8.

4 – انظر: **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ** 164/8، **الدُّرَر الكَامِنَة 1**/331، **دُرَّة الحِجَالِ في أسماءِ الرِّجالِ (ذيل وفيات الأعيان)**، ابن القاضي المكناسي 18/1(20)، **السُّلُوك لِمَعْرِفَةِ دولِ المُلُوكِ**، تقي الدين المقريزي 94/4، **شذرات الذهب** 274/8.

علمُه وأعمالُه: أخذَ ابنُ فضلِ الله العمريّ عن كثيرٍ من الشيوخِ والعلماء، ونظم كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطعات ودوبيت، وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع والأصدقة. كتبَ الإنشاءَ بدمشق، ثم وليَ والده كتابة السرّ بدمشق، ثم طُلب إلى مصر هو ووالده في سنة 728هـ، وباشر والده كتابةَ السرِّ بمصر، ثم خرج مع أبيه إلى دمشق، ثم عاد إليها معه في سنة 733هـ، وأقام إلى بعض سنة 736هـ، وهو في المرتين الأولى والثانية يدخل يقرأ البريد على السلطان، وفي الثانية جلس في دار العدل ووالده القاضي محيي الدين كاتب السر[1].

كُتُبُهُ ومُصَنّفَاتُهُ: كانت حياة العمري القصيرة حافلة بالعطاء، فمن آثاره المطبوعة:

- كتاب مَسَالِكِ الأَبْصَارِ في ممالك الأمصار.
- كتاب التعريف بالمصطلح الشريف.
- كتاب عُرْف التعريفِ في المكاتباتِ.
- كتاب ذهبِيَّة العَصْرِ.
- كتاب الشتويات.
- كتاب الدّرر الفرائد من غُرَرِ القلائدِ.

ومن آثاره التي لم تُطبَعْ:

- دمعة الباكي ويقظة الساهر.
- المبكيات.
- الترسلُ في قواعدِ المكاتباتِ.
- فواضل السمرِ في فضائل آل عمر.
- صَبَابَة المُشْتَاق.
- الدَّعْوَة المُسْتَجَابَة.
- سفرة السفرة.
- نَفْحَة الرَّوْض.

1 – انظر: **أَعْيَان العَصْرِ**، صلاح الدين الصفدي 1/418–419 (218).

- الجوَاهِر المُلتَقَطَة.
- تذكرة الخاطر.

وَفَاتُهُ: توفي ابن فضل الله العمري لمَّا وَقع الطَّاعُون بِدِمَشْق سنة 749هـ[1].

وقبل الولوج إلى دراسة التصوير عند العمري لابد من المرور على المعنى اللغوي والاصطلاحي للصورة الفنية، لندرك ماهية التصوير الفني، ولنفهم آلية حفظ التاريخ عبر صور ومشاهد حية قوامها الأدب.

الصورة لغةً: جاء في اللسان: "من أَسماء الله تعالى: المُصَوِّر، وهو الذي صَوَّر جميع الموجودات ورتبها فأَعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها...والصورة في الشكل...وتَصَوَّرْتُ الشيءَ: توهمت صورتَه فتصوَّر لي...والتَّصاوِير: التَّماثيلُ"[2].

الصّورة الفنية: إن الصورة في الأدب هي كل حيلة لغوية يُراد بها المعنى البعيد لا القريب، وتثير خيال السامع، وتصور الألوان والأشكال والحركات وغيرها من حالات الأشياء تصويراً كلامياً يدركه القارئ مباشرة.

وتنشأ الصورة الفنية من التشبيه أو المجاز أو الكناية أو الاستعارة أو تجسيد المعاني أو غير ذلك[3].

وقد برع العمري في تصوير لوحات أدبية ناطقة، ومشاهد متحركة، أشعل فيها خيال المتلقي، وحفَّز حواسه للإحساس بتفاصيل حوادثها، فاستطاع من خلال مهارته تلك نقل مشاهد حادثة طوفان الجامع الأموي بدقة وأمانة عَبْرَ رسالة تأليفية بعث بها من دمشق المحروسة إلى صاحبه الصفدي في القاهرة، يصف الثلج الكائن في شهر الله المحرم، سنة 745هـ، وما تمخض عنه، وقد ضمَّن العمري هذا النوع من الرسائل في كتابه الشتويات[4].

---

1 – انظر: **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ** 174/8.

2 – **لسان العرب**، ابن منظور، مادة (صور).

3 – انظر: **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مجدي وهبة وكامل المهندس، ص227–228.

4 – وهو مجموعة من الرسائل التي كتبها العمري بدمشق سنة 745هـ عند توالي نزول الثلوج في عامين متتاليين، وتدور الشتويات حول وصف الثلوج والأمطار والرعود والبروق والرياح في بلاد الشام، ويضم الكتاب رسائل إخوانية تبادلها العمري مع كوكبة من الشعراء والكتاب والقضاة وأرباب السيوف والقلم الذين نشأت بينه وبينهم صداقات شخصية، وتتبع

قال العمريّ في الرسالة: "يُقبل كذا، لا رأى في هذا الشتاءِ كيفَ حالُ أوِدَّائِهِ[1]، وكيفَ حالُ بلده الذي رَقَّتْ عليهِ حتى القاسية قلوبُ أعدائِهِ، وكيفَ حالُ الناسِ تحتَ ذيولِ هذهِ الأشتيةِ المَجْرُورَةِ، ونوافِضِ[2] هذهِ الرُّعودِ المقرورة[3]، وقُرحِ[4] شُقْرِ هذهِ البروقِ المَفرورَةِ، وغُرَرِ[5] هذهِ الأيامِ المغرورةِ، وسوافي[6] هذهِ الغيوثِ المذرورَةِ، وضَررِ هذهِ الأنواءِ الرواءِ[7] بالأرضِ المضرورةِ، وسُيوفِ هذهِ السّيولِ الحَدَّةِ المَطرورةِ[8]، ونزولِ هذهِ الثلوجِ بُعُقَدِ البلاءِ مصرورة[9]، ومشيِ الخلائقِ في أرْديةِ هذهِ السُحُبِ المَزرورةِ[10]، وعُبوسِ هذهِ الثنايا[11] الضاحكةِ[12] وما هي مسرورةٌ، ونوازِلِ هذهِ الأمطارِ التي وُلِدَتْ بمواقِعِها القُضُبُ مَخْتونَة، وداراتُ النهرِ مسرورة، وعواصفِ هذهِ الأيامِ التي كأنَّ بها جنَّة، أو هي لكثرَةِ المرورِ ممرورةٌ[13]، وكلب[14] بردِ هذهِ الليالي الذي أصبحتْ تتشكاهُ الكُبودُ المحرورةُ[15]، وبُعد مولانا ومساعيهِ التي تعدِلُ عُمرةً كاملةً وحجّةً مبرورةً.

أهميته من أنه تفرد بكثير من الرسائل النثرية والقصائد والمقطوعات التي لم ترد في مصادر أخرى، ولما كانت هذه الرسائل متعلقة بالصلات والأحاسيس الشخصية، فقد تعددت الموضوعات التي تتحدث عنها تبعاً لتعدد المشاعر، واختلفت مضامينها تبعاً لاختلاف الأشخاص الذين يكتبونها، والشخصيات الذين تُكتب لهم، وهو ما يعكس جانباً من حياة هؤلاء العلماء والأدباء الاجتماعية، وصوراً من أخلاقهم وطبائعهم والمستوى الأدبي الذي وصلوا إليه. انظر: **الشتويات**، ابن فضل الله العمري ص 7–8 (مقدمة المحقق).

[1] – "الودُّ: مصدر المودَّة...وهما يَتَوادَانِ، وهم أوِدّاء". **لسان العرب**، مادة (ودد).

[2] – "النُّفَضةُ الرِّعدةُ". **لسان العرب**، مادة (نفض).

[3] – "يوم مقرورٌ...بارد". **المصدر نفسه**، مادة (قرر).

[4] – "القريحُ: السحاب أَوّلَ ما ينشأُ". **المصدر نفسه**، مادة (قرح).

[5] – "غُرّة كل شيء أَوله". **المصدر نفسه**، مادة (غرر).

[6] – "السَّوافي من الرِّياحِ: اللَّواتي يَسْفِين الترابَ". **المصدر نفسه**، مادة (سفا).

[7] – "رَواءٌ: كثير مُرْوٍ". **المصدر نفسه**، مادة (روى).

[8] – "مَطْرُورٌ: مُحَدَّد، وطَرَرْت السِّنانَ: حَدَّدْته". **المصدر نفسه**، مادة (طرر).

[9] – "الصَّرُّ بالكسر والصِّرَّةُ شدَّة البَرْدِ". **المصدر نفسه**، مادة (صرر).

[10] – "زَرَرْتهُ: إذا شددت أَزْرارَهُ عليه...والزَّرْزَارُ: الخفيف السريع". **المصدر نفسه**، مادة (زرر).

[11] – "ثَنايا الإنسان في فمه الأربعُ التي في مقدم فيه...والثَّنِيّة: الطريقة في الجبل". **المصدر نفسه**، مادة (ثنى).

[12] – "الضَّاحِكُ: حجر أبيض يبدو في الجبل، والضَّحُوك: الطريق الواسع". **المصدر نفسه**، مادة (ضحك).

[13] – "المَمْرُور: الذي غلبت عليه المِرَّةُ، والمِرَّةُ: القوّة، وشده العقل". **لسان العرب**، مادة (مرر).

[14] – "الكُلْبةُ: شِدَّةُ البرْدِ، وفي المحكم شِدَّةُ الشتاءِ، وجَهْدُه". **المصدر نفسه**، مادة (كلب).

[15] – "المَحْرُورُ: الذي تداخلته حَرارَةٌ". **المصدر نفسه**، مادة (حرر).

فلقد أنسى السَّنَةَ الماضيةَ ونشرَ[1] مَيِّتَهَا المَدروجَ[2]، وأعادَ ماضيها وليتَهُ إذ جَمَّدَ النباتَ لا كَرَّرَ سُكَّرَ الثلوجِ.

وساءَت أحوال المدينةِ، وطافَ طوفانُهُ بالجامعِ وغَرَّقَ السفينةَ، وأشابَ رأسَ النسْرِ، وغطى الهلالَ، وكسرَ الصَّحنَ، وأكلَ الحائطَ الشماليَّ باليمينِ والشمالِ[3].

وآذى المآذنَ والمؤذنينَ، وأخرسَ القُرَّاءَ والمؤمنينَ، واقْشَعَرَّتْ لبردِ أيامِهِ البرادةُ[4]، وشَهِدَ المَشْهَدُ بغَماءِ[5] غَمامِهِ، وأقامتْ سبَّابات المآذِنِ معه الشهادةِ، وبَطلتْ ألوانُ بابِ البريدِ المُعَدَّدَةُ، وجرتْ أركانُ جَيرونَ[6] وأبوابُهُ في عمد مُمَدَّدَةٍ، وجالَ على الدَّهماءِ والخضراءِ[7] بِشُهبِ خيولِهِ، وفتحَ أفواهَ أودِيَتِهِ والْتَقَمَ أرْقَمَ[8] كلِّ نهرٍ مُتَلَوّ وشَرِبَهُ بسُيولِهِ.

وساءَ بياضُ يومِهِ سُودَ مراتِعِها وخضرَ مرابِعِها، وشَوَّهَ في هذِهِ الشَّتْوَةِ الألوانَ، وبسطَ ذيلهُ على الوِهادِ[9]، وعقدَ حُباهُ[10] على الكثبانِ.

وجاءَ هذا الشتاءُ بالعَجَبِ، وذَكَّرَ دمشقَ في هذهِ السنةِ بما خلا في الخاليةِ من واقعةِ حلبَ، وأنسى في كلِّ ليلةٍ من ليالي رمضانَ ليلةَ جُمادى، ودفنَ ثلجُها سوءاتِ ثلجِ سنتِنا الماضيةِ، وذَرَّ عليها رمَاداً، وطالتْ أيامُهُ والأعمارُ الذاهبةُ بهِ قِصارٌ، واستطالتْ جنودهُ المهاجرةُ، وقَلَّتِ الأنصارُ.

وجاءتْ أفواجُهُ وكانتْ في علْمِ الغيبِ، وقَدِمَتْ من وراءِ البروقِ من بلادِ الرومِ، وقادِمُها صهيبٌ، وأقبلتِ السحبُ بخيوطِ أنوائِها، وتَقَطَّعَتِ الأسبابُ، وفتحت خوخ[11] البروقِ في

---

[1] – "نَشَر الميتُ...إذا عاش بعد الموت". **المصدر نفسه**، مادة (نشر).

[2] – "أَدْرَجَ الميتَ في الكفن والقبر: أَدخله". **المصدر نفسه**، مادة (درج).

[3] – إشارة إلى قبة الجامع الأموي المسماة قبة النسر، والأهِلَّةِ الموجودة أعلى قبب الجامع، وصحن الجامع، وحائط الجامع الشمالي.

[4] – "البَرَادةُ: كوارَةٌ يُبَرَّد عليها الماء". **لسان العرب**، مادة (برد).

[5] – "أُغْمِيَ يومُنا: دامَ غَيْمُه". **المصدر نفسه**، مادة (غما).

[6] – وهو أحد أبواب الجامع الأموي، ويقع مقابل حي الفوّارة. انظر: **البداية والنهاية**، ابن كثير الدمشقي 14/241–242.

[7] – "حديقةٌ دَهْماءُ مُدْهامَّةٌ: خضراء تَضْرِب إلى السواد من نَعْمَتِها وريِّها". **لسان العرب**، مادة (دهم).

[8] – "الأَرْقَمُ من الحيّات: الذي فيه سواد وبياض". **المصدر نفسه**، مادة (رقم).

[9] – " الوَهْدَةُ: المطمئنُّ من الأَرض، والمكان المنخفض كأَنه حفرة". **المصدر نفسه**، مادة (وهد).

[10] – "الحَبِيُّ: سحاب فوق سحاب، والحَبْوُ: امتلاء السحاب بالماء". **المصدر نفسه**، مادة (حبا).

[11] – "الخَوْخَةُ: كُوَّة في البيت تؤدِّي إليه الضوء...وجمعها خَوْخٌ". **المصدر نفسه**، مادة (خوخ).

السماءِ المُفَتَّحَةِ الأبوابِ، وأصبحتْ بغاربِ[1] النَّوءِ كُلُّ ذروة كأنَّها سنامٌ، وبِمُجْتَحَفِ[2] السيلِ كلُّ عينٍ كأنَّها منامٌ، ووقعَ كلُّ جبلٍ على جنْبِهِ وقد عَصَبَ رَأسَهُ ممّا تَصَّدَعَ، وفاضَ كلُّ وادٍ وامتلأَ بطنُهُ ممَّا شَرِبَ، وانتفخَتْ رواييهِ مِمَّا تَضَلَّعَ[3]، وَعَمَّتْ أهوالٌ، وأَغَمَّتْ أحوالٌ، وكانَ للمدينةِ أيُّ يومٍ، ولِلَيْلَتِهَا في يومِهِ أيُّ نومٍ، ودخلَتْها البَقَرُ بالجَوَاريفِ لِجَرْفِ الثلجِ، وما دخلَتْ آلةُ الحرثِ دارَ قومٍ.

هذا بعدَ توالي أيامٍ ما نعرِفُ ما نقولُ فيها، إلا أنَّها شَغَلَتِ الشيخَ أبا تَمَّام وشَيَّبَتِ الوليدَ، وحَجَبَتِ الدارَ فما نُظِرَ إليها إلا من وراءِ زُجاجَةٍ من الجليدِ، وعَزَّ بها حتى على المَيِّتِ أنْ يُقْبَرَ، ولم يُرَ فيها قتيلٌ في بيتِهِ إلا أنَّهُ القتيلُ المُصَبَّر، ولم يَبْدُ من شهودِ الجِبالِ ذواتِ الذوائِبِ، إلا كُلُّ مُعَذَّب بالرحمةِ، ولا من عهودِ الغَمامِ المُمْتَدِّ السحائِبِ إلا كُلُّ منشور أبيضَ كالفَحْمَةِ.

فلما راعَ المملوكَ منظرُهُ وساءَهُ، ورأى نهارَهُ الطويلَ –وقد جَعَلَ طَرَفَ جناحَيهِ مساءَهُ– استصرَخَ[4] على رُعودِهِ الصارخةِ، واستعانَ على بروقِهِ النافخةِ، واستنصَرَ عليهِ بكلِّ من يهتفُ بهِ الدَّاعي[5]، وتَهفو إليهِ المَسَاعي، وأرسَلَ رُسُلَهُ يَشكو سَعيَ هذا المَطَرِ المُفْسِدِ، فجاؤوا يَجري وراءَهُم السَّاعِي، ولم يُدْعَ مِنْهُم من لم يُسْتوثَق بِجَناحِهِ، ويفترس عادية هذا العدوّ بسلاحِهِ، ويُرَدّ بهِ أشَدّ بأساً من هذا الشتاءِ، فأمَّا هوَ وكلبُ بردِهِ فلا يُنَحَّى بحجرٍ لِنُباحِهِ.

وقدْ جمعَ المملوكُ ذلك كلَّهُ –الابتداآتِ والأجوبَةَ–بين دفَّتَي دفترٍ، وأضافَ إليهِ مقامةً من ذخائرِ مولانا التي لم يَزَلْ بها يتَكَثَّرُ، وأثبتَ هذا الكتابَ، وأخلى مكانَ الجوابِ، فلعلَّهُ يُنْعِمُ بهِ لا بَرِحَ منعماً، ولا زال سالماً ما عليهِ إلا ما يرد من مطرِ السَّماء، ولا فتِئ يُكْمِلُ النَّقْصَ، ولو لم يكنْ مالِكاً لَما جُعِلَ، وحاشاهُ من الرَّيبِ مُتَمِّماً، إن شاء الله تعالى"[6].

---

[1] – "غاربُ كلِّ شيءٍ أَعْلاه...والغاربُ: أَعلى مُقَدَّمِ السَّنام". **المصدر نفسه**، مادة (غرب).

[2] – "الجَحْفُ: شِدَّةُ الجَرْفِ...وسَيْلٌ جُرافٌ وجُحافٌ: يَجْرُفُ كلَّ شيء، ويَذْهَبُ به". **المصدر نفسه**، مادة (جحف).

[3] – "تَضَلَّعَ الرجلُ: امْتَلأَ ما بين أَضْلاعِه شِبَعاً وريّاً". **المصدر نفسه**، مادة(ضلع).

[4] – "المستصرخ: المستغيث". **لسان العرب**، مادة (صرخ).

[5] – "الداعية: صريخُ الخيل في الحروب لدعائه مَنْ يَسْتَصْرِخُه". **المصدر نفسه**، مادة (صرخ).

[6] – **ألحان السواجع** 1/162–165، **الشتويات** 226–230.

بنية الرسالة:

افتتح العمريّ رسالته بالتقبيل، وأتبعه بجمل دعاء، ثم نفذ من خلال الدعاء إلى تصوير حال الناس مع تبدل أحوال هذا الشتاء القاسي؛ فصوَّر ما كان من بطش الرعود والبروق والسيول والأنواء والعواصف بالأرض ومن عليها، وصوَّر عِظمَ ما جاء به هذا الشتاء حتى أنسى الناس الأشتية الماضية، والمصائب التي حلَّت فيها على حلب.

ثم نقل مشاهد حادثة طوفان الجامع الأموي وصورها، ووصف ما حصل لكُّل ركنٍ من أركانهِ، وعرض صوراً من عجائب هذا الشتاء، وأهواله، ووصفَ معاناة الناس التي فاقت الاحتمال، إذ كثُرتْ الموتى حتى تعذَّر دفنهم.

وبيَّن العمريّ في نهاية الرسالة أنَّه قام بجمعها مع مثيلاتها بين دفتي دفتر، وأثبت الابتداآت والأجوبة فيه، وترك فراغاً لرد صاحبه، وختم كلامه بدعاء لائق، وعلَّق ما جاء فيها بالمشيئة.

طريقة الأداء:

– بنى العمري رسالته بناءً مسجوعاً، ولفها بطيفٍ واسع من ألوان البلاغية والبديع.

– أثرى رسالته بالجناس، فصنع إيقاعاً موسيقياً متناغماً بين عباراته، إذ ضم المقطع الأول سلسلة طويلة من الجناسات المتناغمة الإيقاع، بين الألفاظ: "المَجْرُورَةِ– المقرورة– المَقرورَةِ–المغرورةِ– المذرورَة– المضرورةِ– المَطرورةِ– مصرورة– المَزرورةِ– مسرورة– ممرورة– محرورة–مبرورة".

–حافظ العمري على وحدة الموضوع، فلم يخرج عن نطاق بث مشاعر الحب والشكوى، مستعرضاً ملكاته الأدبية عبر الصور الشتوية الجليلة التي رسمها.

–بنى رسالته بأسلوب قصصي، وروى الحوادث بصيغة الغائب، فعبر عن نفسه بهاء الغائب، بينما روى بعض حوادث الشتاء بصيغة جماعة المتكلمين.

–خرج في بناء رسالته عن النمط التقليدي الذي اعتاده في رسائله الديوانية، فافتتح رسالته بالتقبيل والدعاء للمرسَلِ إليهِ، ولم نلحظ فيها أي ذكر للبسملة والحمدلة والتشهد والصلاة والتسليم.

–نفذ من خلال الدعاء إلى تصوير الشتاء بمشاهد متلاحقة وصور طريفة.

– انتقل بين أركان الرسالة باستخدام أدوات الربط الاعتيادية، كأدوات العطف والاستئناف، وغيرها.

– استخدم اسم الاستفهام "كيف" ليوضح من خلاله أفعال الشتاء المُشينة بالناس بعيداً عن الاستفهام الذي عُرف به.

– جاءت الرسالة متوسطة الحجم، رفيعة الأسلوبِ، حملت بين طياتها مشاعر التوقير والاحترام؛ فقد نعت صاحبه بـ "مولانا"، بينما نعت نفسه غير مرة بـ "المملوك".

– ختم الرسالة بطلبٍ تقدَّم به إلى صاحبه، عبَّر فيه عن أسلوبه الأدبي الرفيع، وأدب الخطاب الذي تمتع به، والعاطفة الجياشة التي يكنها لصاحبه، وقد تجلت هذه العاطفة بعبارات الدعاء الرقيقة، وجمل المديح اللائقة.

– علَّق ما جاء في الرسالة بالمشيئة الإلهية– على عادته في سائر رسائله–تعبيراً عن إيمانه المطلق.

البناء التصويري للرسالة:

بنى العمري رسالته التأليفية الوصفية مستخدماً فنون البلاغة والبديع، فلم تخلُ عبارة من عباراته من التحلي بلون أو أكثر من ألوانها، وبدا في رسالته مصوراً بارعاً، استطاع أن يوثق بكلماته المختارة ما التقطته عيناه من الصور والمشاهد الشتوية:

فمن الصور الشتوية:

ذيولِ الأشتيةِ مَجْرُورَةِ.

ونوافِضِ الرُّعودِ مقرورة.

وسوافي الغيوثِ مَذرورَةِ.

ونزولِ الثلوجِ بُعُقَدِ البلاءِ مصرورة.

وعُبوسِ الثنايا الضاحكةِ وما هي مسرورةٌ.

ونوازِلِ الأمطارِ ولدت بمواقِعِها القُضُبُ مَخْتونَة.

ومن المشاهد الشتوية

مشهد مجيء الشتاء

جاءَ هذا الشتاءُ بالعَجَبِ، ودفنَ ثلجُهُ سوءاتِ ثلجِ السنة الماضيةِ، وذَرَّ عليها رمَاداً، وجاءتْ أفواجُهُ وكانتْ في علْمِ الغيبِ، وقَدِمَتْ من وراءِ البروقِ من بلادِ الرومِ، وأقبلتِ السحبُ

بخيوطِ أنوائِها، وفتحَتْ خوخ البروقِ في السماءِ المُفَتَّحَةِ الأبوابِ، وأصبحتْ بغاربِ النَّوءِ كُلّ ذروةٍ كأنَّها سنامٌ، وبِمُجْتَحَفِ السيلِ كلُّ عينٍ كأنَّها منامٌ، ووقعَ كلُّ جبلٍ على جنْبِهِ وقد عَصَبَ رَأسَهُ ممّا تَصَّدَعَ، وفاضَ كلُّ وادٍ وامتلأَ بطنُهُ ممَّا شَرِبَ، وانتفخَتْ روابيهِ مِمَّا تَضَلَّعَ، ودخلَتْ البَقَرُ المدينةَ بالجَوَاريفِ لِجَرْفِ الثلجِ.

مشهد طوفان الجامع

طافَ الطوفانُ بالجامعِ فغَرَّقَ السفينةَ، وأشابَ رأسَ النسْرِ، وغطى الهلالَ، وكسرَ الصَّحنَ، وأكلَ الحائطَ الشماليَّ باليمينِ والشمالِ، وآذى المآذنَ والمؤذنينَ، وأخرسَ القُرَّاءَ والمؤمنينَ، واقْشَعَرَّتْ لبردِ أيامِهِ البرادةُ، وأقامتْ سبَّاباتُ المآذِنِ معه الشهادة، وبَطُلتْ ألوانُ بابِ البريدِ المُعَدَّدَةُ، وجرتْ أركانُ جَيرونَ وأبوابُهُ في عمد مُمَدَّدَةٍ، وجالَ على الدَّهماءِ والخضراءِ بِشُهبِ خيولِهِ، وفتحَ أفواهَ أودِيَتِهِ والْتَقَمَ أرْقمَ كلِّ نهرٍ مُتَلَوٍّ وشَرِبَهُ بسُيولِهِ، وشَوَّهَ في هذِهِ الشَّتْوَةِ الألوانَ، وبسطَ ذيلهُ على الوِهادِ، وعقدَ حُباهُ على الكثبانِ .

– استعان العمريّ بطريف الاستعارات لتصوير المشاهد بطريقة تثير ذهن المتلقي، وتدغدغ مخيلته، فالأشتية عنده لها ذيول، والأيام لها غُرر، والسيول لها سيوف، والسحب لها أردية مزرورة، والمآذِنِ لها سبَّابات، والأودِيَة لها أفواه، وعواصفِ الأيامِ مجنونة، ورأسَ النسْر قد شاب، والثنايا تضحك وهي عابسة، وما هي مسرورة.

وتولد الإطراف في استعاراته من تشخيص الجمادات والمجردات وتجسيمها، وقد أبدع العمري في استعارته الأخيرة، فأقام تضاداً بين الضحك والعبوس، وولَّد هذا التضاد مفارقة طريفة، فالثنايا تضحك إلا أنها غير مسرورة، وجاءت التورية ب "الثنايا" لتزيد الصورة جمالاً، فالثنايا هي الأسنان الأمامية، وهي في الوقت ذاته مسارات الجبال.

– رسم العمريّ لوحاتٍ فريدةً للشتاء بحذق ومهارة، فجعلنا نرى أمامنا الطبيعة الصامتة والصائتة بدقة وأمانة فنية، وأكثر من تدبيج الألوان، وإضفاء المؤثرات الضوئية والصوتية التي زادت الصور ألقاً وإمتاعاً، وبثت الحياة في أوصال النص:

. فمن الألوان التي أضاء بها النص: الخضراء، خضر، سود، شقر، أبيض.

. ومن الكلمات التي حملت مؤثرات لونية: الدهماء، الفحمة، أشاب، الثلوج، رماد.
. ومن الكلمات التي حملت مؤثرات ضوئية: البروق، أشعلت.
. ومن الكلمات التي حملت مؤثرات صوتية: الرعود، عواصف، استصرخ، الصارخة، يهتف، نباح.
فقد أدرك العمري أن العين والأذن نافذتا الإنسان على العالم، يدرك من خلالهما الأشياء بتباين أصواتها وألوانها، فزود نصه بالأصوات، ودبَّجه بالألوان، موريا بها تارة، ومكنيا بها تارة أخرى لينقل لنا مشاعره وانفعالاته بأمانة فنية، ويحول الصورة من ذهنية إلى مرئية لتعلق بالنفس أكثر.
– بنى العمريّ نصه متكئاً على أدوات التأريخ، فحقق له الصدق الفني من خلال إغنائه بعناصر واقعية من أزمنة، وأمكنة، وقصص حقيقية، وأسماء أعلام حقيقيين
. فمن الأزمنة: الشتاء، السنة الماضية، رمضان، جمادى.
. ومن الأمكنة: دمشق، حلب، بلاد الروم، الجامع الأموي (باب البريد، باب جيرون، صحن الجامع، الحائط الشمالي، المآذن، رأس النسر، الهلال).
. ومن الأعلام الذين أشار إليهم: الشاعر أبو تمام، والشاعر البحتري، والصحابي الجليل صهيب الرومي.
. ومن الحيوانات التي ذكرها: البقر. فضلاً عن أنه أشار إلى النسر، والطيور، والكلب، والخيول، والإبل عن طريق الاستعارات والتورية.
. ومن القصص الشهيرة التي أشار إليها: قصة طوفان سيدنا نوح عليه السلام والسفينة، وقصة كتابة حماسة أبي تمام، وواقعة حلب، وقصة الهجرة النبوية (المهاجرون والأنصار).
– أكثر العمريّ من التجسيم والتشخيص، فجعل لبعض الأشياء: عيناً، ورأساً، وبطناً، وشعراً، وجعل لأخرى غارياً، وذروة، وسناماً، وجناحاً.
ولا يخفى ما يبعثه كلٌّ منهما في الجماد والمجرد من الحياة والحركة لما يحملانه من دلالة الظهور والوضوح، فقد خطَّ العمري رسالته بدافعٍ وجدانيّ، وفاضت عاطفته من الكلمات، فحمَّلها فيض مشاعرهِ، ودخل النص وعاش مع مكوناتهِ، ونشأت بينهما صحبة قوية، فتمثلت له الأشياء أشخاصاً وكائنات حية، أحسَّ بها وأحست به، وجرت بينهما أمور.

– تجلت ثقافة العمري الواسعة في اقتباساته الكريمة، وإشاراته للقصص الشهيرة، وتضمينه لبعض الأبيات، وقد أسهمت هذه الثقافة في إثراء النص بما يرفعه:

. فقد اقتبس عبارته: "وأقبلتِ السحبُ بخيوطِ أنوائِها، وتَقَطَّعَتِ الأسبابُ" من قوله تعالى:﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾سورة البقرة، الآية 166، وصرف الآية عن معناها الأصلي الذي يتحدث عن عذابات الكفار يوم القيامة، ليتحدث في عبارته عن عذابات الناس تحت هذه الأشتية المجرورة.

. وضمن عبارته: "هذا بعدَ توالي أيامٍ...لم يُرَ فيها قتيلٌ في بيتِهِ إلا أنَّهُ القتيلُ المُصَبَّرُ" بقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر1 (ت: 692هـ) صاحب ديوان الإنشاء:

إن صَبَّروا عنكَ قلبي...فهو القتيلُ المُصَبرْ

. ولمَّحَ أيضاً في قوله "وطافَ طوفانُهُ بالجامعِ وغَرَّقَ السفينةَ" إلى قصة نوح عليه السلام، وحملت عبارته كناية ضمنية عن شدة هذا الطوفان الذي فاق طوفان نوح، وأغرق السفينة، على عكس طوفان نوح الذي لم يستطع إغراق السفينة.

. ولمَّح بعبارته "ولم يَبْدُ من شهودِ الجِبالِ ذواتِ الذوائِبِ، إلا كُلُّ مُعَذَّبٍ بالرحمةِ" إلى قوله "اللَّهُمَّ سُقْيَا رَحْمَةٍ، وَلَا سُقْيَا عَذَابٍ"2، فحمَّل عبارته تباين حالَي المطر ما بين الرحمة والعذاب.

. ولمَّح بعبارته "وداراتُ النهرِ مسرورةً" إلى قول الشاعر يصف نهر النيل3 (السريع):

فكأنَّما أمواجُهُ عُكَنٌ...وكأنَّما داراتُهُ سُرَرُ

فاستحضر صورة النيل العظيمة في الأذهان، وجعل سيول الأموي تعادله غزارةً.

---

[1] – **الوافي بالوفيات** 154/17، هو القاضي عبد الله بن عبد الظَّاهِر بن نشوان بن عبد الظَّاهِر الجذامي الْمصْرِيّ، الْكَاتِب النَّاظِم النَاثر شيخ أهل الترسل وَمن سلك الطَّرِيق الْفَاضِلِيَّةِ فِي إنشائه وَهُوَ وَالِد القَاضِي فتح الدّين مُحَمَّد صَاحب ديوَان، كَانَ بارع الْكِتَابَة فِي قلم الرّقاع، ظريفاً ذَا عَرَبِيَّة حلوة، وَكَانَ ذَا مُرُوءَة وعصبية، تُوفِّي سنة 692هـ. انظر: **المصدر نفسه** 135/17–155(6203).

[2] – **نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار**، محمد بن علي الشوكاني 197/7.

[3] – **ديوان المعز لدين الله الفاطمي** ص 241.

. وأشار العمري في قوله: "وجاءتْ أفواجُهُ وكانتْ في علْمِ الغيبِ، وقَدِمَتْ من وراءِ البروقِ من بلادِ الرومِ وقادِمُها صهيبٌ" إلى مجيء البرد والثلج من بلاد الروم موجِّهاً باسم الصحابي الجليل صهيب الرومي[1]، "ومن المجاز يوم أصهب شديد البرد"2.

. وأشار العمري أيضاً في قوله: "هذا بعدَ توالي أيامٍ ما نعرِفُ ما نقولُ فيها، إلا أنَّها شَغَلَتِ الشيخَ أبا تَمَّام[3] وشَيَّبَتِ الوليدَ" إلى قصة الثلج التي حبست أبا تمام حتى صنف حماسته الشهيرة، أضف إلى أنه وجه باسم الشاعر البحتري[4].

. وأشار أيضاً بقوله: "وجاءَ هذا الشتاءُ بالعَجَبِ، وذَكَّرَ دمشقَ في هذهِ السنةِ بما خلا في الخاليةِ من واقعةِ حلبَ" إلى واقعة حلب التي وقعت في شعبان سنة 744هـ، "فقد جَاءَتْ زَلْزَلَةٌ عظيمة شَعَّثَتْ فِي بِلَادِ حَلَبَ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الْعُمْرَانِ حَتَّى سَقَطَ بَعْضُ الْأَبْرَاجِ بِقَلْعَةِ حَلَبَ، وَكَثِيرٌ مِنْ دُورِهَا وَمَسَاجِدِهَا وَمَشَاهِدِهَا وَجُدْرَانِهَا، وَأَمَّا فِي الْقِلَاعِ حَوْلَهَا فَكَثِيرٌ جِدًّا، وَذَكَرُوا أَنَّ مَدِينَةَ مَنْبِجَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَأَنَّ عَامَّةَ السَّاكِنِينَ بِهَا هلكوا تحت الردم"5، فاستدعى القصة بما فيها من فواجع، واستحضر رهبتها في النفوس.

– صنع العمري بعض الصور والمشاهد باستخدام الأساليب البلاغية كالكناية والتورية والتوجيه والطباق والمفارقة وغير ذلك:

. فكنَّى بقوله: "كيفَ حالُ بلده الذي رَقَّتْ عليهِ حتى القاسية قلوبُ أعدائِهِ" عن شدة قسوة هذا الشتاء، وقد زاد الطباق بين الرقة والقسوة من قوة هذه الكناية، وأضافت لها المفارقة شيئاً من الطرافة، فقد بطش الشتاء بالناس حتى أشفق عليهم قساة القلوب مما لاقوه منه.

---

[1] – هو صهيب بن سنان بن مالك الرومي، أسره الروم فنسب إليهم، توفي سنة 38هـ. انظر: **الوافي بالوفيات** 253/5.

[2] – **أساس البلاغة**، محمود بن عمر الزمخشري، مادة (صهب).

[3] – أَبُو تَمام الطَّائِي: هو الشاعر المشهور حبيب بن أَوْس الطائي، كَانَ أوحد عصره فِي ديباجة لَفظه وصناعة شعره وَحسن أسلوبه، وَكَانَ لَهُ من المحفوظات مَا لَا يلْحقهُ فِيهِ غَيره، وَله كتاب الحماسة وَهُوَ كتاب يدل على حسن اخْتِيَاره، وَهُوَ الَّذِي فتح بَاب البديع وغاص على الْمَعْنى الدَّقِيق، توفي سنة 231 أو 232هـ. انظر: **الوافي بالوفيات** 225/11–230(3079).

[4] – هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري، ولد بمنبج، ونشأ وتخرج فيها، ومدح جماعة من الخلفاء. انظر: **الوافي بالوفيات** 271/27 (476).

[5] – **البداية والنهاية** 211/14–212.

. وكنَّى بكلمة "الشمال" في قوله: "وطاف طوفانه...وأكلَ الحائطَ الشماليَّ باليمينِ والشمالِ" عن شدة الضرر الذي لحق بالجامع، فقد عاثت الطبيعة بحائطه الشماليّ بشدة، وعلى نحو لا يرضي الله، لأن ديننا نهانا عن الأكل باليد اليسرى.

. وكنَّى بقوله: "وشَهِدَ المَشْهَدُ بغَماءِ غَمامِهِ، وأقامتْ سبَّابات المآذِنِ معه الشهادةِ" عن تغطية السحب التامة للسماء، لأنَّ الغماء هو دوام الغيم، وكنَّى أيضاً في عبارته الثانية عن تجمد المآذن، وقد أكسب التشخيص طرافة للعبارتين حين تقدَّم المشهد وأدلى بشهادتهِ، ومدت المآذن سبابتها لتقيم معه الشهادة، وربما جاءت عبارته الثانية على الحقيقة، أي إنَّ الأذان رُفعَ على الرغم من هذه الأجواء العصيبة.

. وكنَّى أيضاً بقوله: "وجالَ على الدَّهماءِ والخضراءِ بِشُهبِ خيولِهِ" عن شدة الطوفان الذي لم يترك مكاناً إلا أفسده، وقد لفَّت الاستعارةُ هذه الكنايةَ بوشاحٍ بهيّ، ورسمت صورةً بديعةً لخيول الشتاء وهي تطوف على أركان البلاد وتدكها دكاً.

. وقد أبدع العمري في قوله: "وساءَ بياضُ يومهِ سُودَ مراتِعِها وخضرَ مرابِعِها"، فكنَّى بقوله "بياض يومه" عن الثلج الكثير المسيء، وبنى مفارقة طريفة في اليوم الأبيض الذي يسيء إلى المراتع السوداء، وأضاف الطباق بين الأسود والأبيض بعداً أعمق لهذه المفارقة، وفضلاً عن ذلك فقد أضفى التدبيج بالألوان الثلاثة البهجة على النص.

. وكنَّى أيضاً بقوله: "فتحت خوخ البروقِ في السماءِ المُفَتَّحَةِ الأبوابِ" عن غماء السماء وظلمتها، حتى إنَّ البروق تكاد تلمع أضواؤها من كوة صغيرة، وكنى بعبارة "الأبواب المفتحة" عن غزارة الهطولات الثلجية والمطرية، ولعله ورى بقوله "خوخ البروق" عن ثمر البرقوق، وهو ثمر الخوخ المعروف، وقد أضاء العمري عبارته هنا بالاقتباس الكريم من قوله تعالى:﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾سورة ص، الآيتان 50و51.

. وكنى العمري بقوله: "ووقعَ كلُّ جبلٍ على جنْبِهِ وقد عَصَبَ رَأسَهُ ممّا تَصَدَّعَ" عن فداحة فِعل هذا الشتاء الذي أفقد الجبل صوابه وجعله يخر على الأرض صعقاً، معصوب الرأس

لألمٍ ألمَّ به من هول ما جرى، وقد جمَّل العمري كنايته موريا بكلمة "تصدع" التي تحمل معنيين التشقق وصداع الرأس.

. وكنَّى العمري بقوله: "ودخلَتْها البَقَرُ بالجَوَاريفِ لِجَرْفِ الثلجِ، وما دخلَتْ آلةُ الحرثِ دارَ قومٍ" عن الذل الذي لحق بالناس بفعل هذا الشتاء الغاشم، وقد تولدت الكناية من اقتباسه لقول النبي الكريم عندما رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث: "لا يدْخُلُ هذا بيتَ قومٍ إلا أُدْخِلَهُ الذُّلُّ"[1].

. وتتدر في التورية بكلمة "كرر" في قوله: "وليتَهُ إذ جَمَّدَ النباتَ لا كَرَّرَ سُكَّرَ الثلوجِ"، فذكر المعنى القريب وهو تكرير السكر، وأراد المعنى البعيد وهو الدعاء بألا يتكرر هطل هذه الثلوج.

. وتتدر كذلك في وصف الغمام الذي أغمَّ على الناس فقال: "ولم يَبْدُ...من عهودِ الغَمامِ المُمْتَدِّ السحائِبِ إلا كُلُّ منشورٍ أبيضَ كالفَحْمَةِ"، فقد صنع وصفه مفارقة طريفة تولدت من تدبيج الطباق بين "أبيض" و "الفحمة"، فقد اقتضى العُرف أن يُشبَّه البياض بالثلج، أما أن يشبه البياض بالفحمة فذلك يشير إلى غضب الطبيعة، وعبثها بالأرض، وإفسادها لقوانينها.

الخاتمة:

[1] – **مختصر صحيح الإمام البخاري**، محمد ناصر الدين الأشقودري الألباني 109/2.

استطاع العمري الأديب العالم، والمؤرخ ذو الملكات الأدبية أن يؤرخ للحوادث العظيمة على غرار علماء التاريخ عبر ربط الحوادث بأزمنتها، وبالإضافة إلى هذا فقد برع في نوع آخر من التأريخ استطاع من خلاله حفظ الحوادث في قالبٍ أدبي ماتع، متخذاً من أساليب البلاغة والبديع طرقاً لتوثيق الحوادث في الذاكرة العقلية والبصرية، فوشَّى نصه بالطباقات لإضفاء روح التباين والإيضاح عليه، وعطَّره بالاقتباسات الكريمة، ورسم حوادثه باستخدام طيفٍ واسعٍ من ألوان الاستعارة والتجسيم والتشخيص والتورية حتى باتت كل قراءة جديدة للنص تتفتق عن فهم أعمق ومعانٍ جديدة لم يكن يُلِمُّ بها المتلقي.

وفَّرَ العمري لرسالتهَ الإيقاع الموسيقي من خلال توازن الجمل وتسجيعها، ومن خلال إثرائها بأنواع الجناس، واستطاع أن يدغدغ مخيلتنا عبر الأساليب التي اتكأ عليها لبث الروح في أوصال نصِّه بصنع صور ومشاهد متلاحقة سريعة الوتيرة، فنقل إلينا حوادثاً كثيرة بكلمات قليلة، وتمكن من إبهار المتلقي عبر تعزيز هذه الصور بالاستعارات والكنايات.

زود نصه بشحنة من الإمتاع عبر المفارقات التي نقلها في تلك المشاهد، وأضاء مشاهده الشتوية القاسية بتدبيج الألوان، واستخدام المؤثرات اللونية والضوئية، وأسهمت المؤثرات الصوتية التي أغنى بها نصه في بث الحياة الكاملة في المشاهد، فاستطاع تمكين المتلقي من رؤية الحدث من داخل المشهد، لا من خارجه.

يعدُّ نصُّهُ وثيقة تاريخية واجتماعية، فهو أقرب لأن يكون شريطاً وثائقياً مصوراً يؤرخ لحادثة طوفان الجامع الأموي بأسلوب فني لافت، ويصور الحياة الاجتماعية، وتعاطي الناس مع الحوادث.

إذن استطاع العمريّ أن يوثق حوادث تاريخية عظيمة باستخدام طرائق بناء الشعر، فوفَّر لرسالتِهِ العبارات المستخدمة في الشعر، وانتقى لها الألفاظ الشعرية الموحية والمعبرة معاً، وقام–من خلال هذا النص الأدبي الرفيع–بالعمل نفسه الذي تجهد المؤسسات الإعلامية الضخمة نفسها للقيام به–في أيامنا هذه–عبر إرسال الإعلاميين لتصوير الحوادث ونقلها بأدق تفاصيلها.

المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم.

- الألباني، محمد ناصر الدين الأشقودري، مُخْتَصَر صَحِيح الإمَامِ البُخَارِي، ط1، الرياض، مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، 4مجلدات(2002م).

-ابن تغري بردي، يوسف:

. المَنْهَلُ الصَّافِي والمُسْتَوفِي بعدَ الوافِي، تح: د. محمد محمد أمين، القاهرة مصر، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب،7 أجزاء(1984م).

. النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ في مُلُوكِ مصرَ والقاهِرَة، تح: محمد حسين شمس الدين، ط1، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 16 مجلداً(1992م).

- ديوان المعز لدين الله الفاطمي، ط1، القاهرة، مصر، مطبعة دار الكتب المصرية، مجلد واحد (1957 م).

- الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، مجلدان(1998م).

- الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق، ط1، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي، 7 أجزاء(1427هـ).

- الصفدي، صلاح الدين:

. أعيان العصر وأعوان النصر، تح: د. علي أبو زيد وآخرين، ط1، دمشق سورية، بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، 6 مجلدات، الأخير للفهارس(1998م).

. أَلْحَانُ السَّوَاجِعِ بينَ البَادِئِ والمُرَاجِعِ، تح: إبراهيم صالح، ط1، دمشق، سوريا، دار البشائر، مجلدان(2004م).

. الوَافِي بالوَفَيَاتِ، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، 29 مجلداً (2000م).

- العسقلانيّ، ابن حجر، الدُّرَرُ الكَامِنَةُ في أعيانِ المئةِ الثامنةِ، تح: د. سالم الكرنكوي الألماني، بيروت لبنان، دار الجيل(1993م).
- ابن العماد، عبد الحي العكري الحنبلي، شَذَرَاتُ الذَّهَبِ في أخبارِ منْ ذَهَبَ، تح: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ط1، دمشق، بيروت، دار ابن كثير. 11مجلداً الأخير للفهارس(1992م).
- العُمَرِيّ، أحمد ابن فضل الله، الشَّتَوِيَّات، تح: د. حسن محمد عبد الهادي، ط1، القاهرة، عالم الكتب، مجلد واحد(2017م).
- ابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي، دُرَّةُ الحِجَالِ في أسماءِ الرِّجالِ (ذيل وفيات الأعيان)، تح: محمد الأحمدي أبو النور، ط1، القاهرة، دار التراث، 3مجلدات(1970م).
- الكتبي، محمد بن شاكر، فَوَاتُ الوَفَيَات، تح: د. إحسان عباس، ط1بيروت لبنان، دار صادر، 5 مجلدات (الخامس للفهارس) (1973م).
- ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ط7، بيروت لبنان، مكتبة المعارف، 15 مجلداً الأخير للفهارس(1988م).
- المقريزي، تقي الدين:
. السُّلُوكُ لِمَعْرِفَةِ دولِ المُلُوكِ، تح: محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية،7 أجزاء(1997م).
. المُقَفَّى الكَبيرُ، تح: محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 8 مجلدات الأخير للفهارس(1991م).
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ط3، بيروت لبنان، دار صادر، 15مجلداً(1414هـ).
- وهبة، مجدي والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، لبنان بيروت، مكتبة لبنان مجلد واحد (1984م).